دُور حضانة تحتاج إلى حضانة!

أ. د. مصطفي رجب

أستاذ أصول التربية، كلية التربية، جامعة سوهاج،

عميد كلية التربية سابقًا

إن الأطفال هم الاستثمار الذي تدخره المجتمعات المتقدمة للنهوض بمستقبلها الاقتصادي، فالاهتمام بهم في مرحلة الطفولة المبكرة في غاية الأهمية، ففي هذه الفترة من عمر الطفل تتكون شخصيته بكل جوانبها المعرفية، والانفعالية، والجسمية، والاجتماعية، وخلالها يمر الطفل بأهم التغيرات والتطورات التي ستؤثر في مختلف جوانب شخصيته.

كما أن هذه المرحلة في حياة الطفل لا يمكن تجاهلها أو إهمالها، حيث تؤدي دورًا مهمًا ومؤثرًا في تشكيل شخصيته، ومن ثَم يسعى أي مجتمع إلى صياغتها وفق تطلعاته وآماله؛ لأن طفولة الإنسان هي اللبنة الأولى في بناء الفرد، فالسنوات الخمس الأولى من حياة الطفل هي أسرع - وأهم - فترة في نمو، وبخاصة في المجال العقلي المعرفي؛ مما يجعل أثرها باقيًا على مر السنين، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن التعلم في السنوات الأولى هو الأساس الذي يقوم عليه التعلم في المراحل اللاحقة، وأن خبرات الطفل في سني حياته المبكرة تُبنى عليها فيما بعد تكويناته المعرفية، ومهاراته، وقيمه، واتجاهاته.

واهتمام الدولة بأطفالها ورعايتهم من مظاهر تقدمها ورقيها، وتربية الطفل وتعليمه من مقاييس تقدم الدول، كما يعد حتمية حضارية يفرضها التقدم العلمي والتكنولوجي المعاصر، من أجل إعداد طفل قادر على اكتساب المعرفة التي يحتاجها، ومن هنا تبرز أهمية تربية الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة، والاهتمام به ورعايته، وتنشئته التنشئة الاجتماعية التي تتناسب مع طبيعة العصر والمجتمع الذي يعيش فيه.

ولذلك يرى التربويون مرحلة دور الحضانة من أهم المراحل العمرية للفرد؛ حيث تتشكل خلالها الأسس العامة لبناء شخصية الطفل؛ ولذلك اهتمت معظم دول العالم، وخاصة المتقدمة بهذه المرحلة؛ لأن في دور الحضانة يجد الطفل اللعب بشتى أنواعه، وجماعات الأصدقاء، ومجموعة من المشرفات فيهن العاطفة والحنان الذي يعوضه إلى حد ما عن حنان أمه التي تغيب عنه في تلك الفترة.

وتهدف دور الحضانة إلى تحقيق النمو الشامل والمتكامل للطفل، وتهيئته وإعداده إعدادًا سويًا للمراحل العمرية التالية، كما تعمل على توحيد وإكساب الطفل العادات السلوكية التي تتفق مع قيم وعادات وتقاليد المجتمع الذي ينتمي إليه، وتنمية ميول الأطفال، واكتشاف قدراتهم، والعمل على تنميتها.

وقد اهتمت الدولة بأن يكون إشراف وزارة الشئون الاجتماعية على دور الحضانة، فقد أُنشئت بقرار من وزير التضامن الاجتماعي لجنة عُليا لدور الحضانة تتكون من أشخاص أكفاء لرعاية طفل ما قبل المدرسة، كما نص القانون على أن تنشأ بكل محافظة من المحافظات لجنة تسمى شئون دور الحضانة، برئاسة المحافظ، وقد تضمنت نصوص القرارات والقوانين الخاصة بدور الحضانة العديد من الفقرات التي تؤكد ضرورة الاهتمام بدور الحضانة، ونظام العمل بها، والشروط الواجب توافرها في كل دار، والجهاز الوظيفي، وبرامج الخدمة، والنواحي التربوية التي يجب مراعاتها.

وهكذا توالت القوانين والقرارات الوزارية بشأن تنظيم وإدارة مراكز رعاية طفل ما قبل المدرسة في جمهورية مصر العربية، وأهم هذه القرارات هي التي جعلت دور الحضانة تابعة لوزارة الشئون الاجتماعية، ورياض الأطفال تابعة لوزارة التربية والتعليم، ومن هنا تتضح أهمية مؤسسات دور الحضانة؛ لما لها من عظيم الأثر على تربية الطفل ورعايته وتشكيل شخصيته في جميع جوانبها.

ولهذا أصبحت التربية قبل المدرسية ضرورة ثقافية ومطلبًا اجتماعيًا لا تفرضه أهمية وخطورة تلك المرحلة فحسب، بل أصبحت ضرورة تفرضها المتغيرات المجتمعية، باعتبارها واقعًا معيشًا في المجتمع المصري والعالم بأسره، حيث أدى التغير في الأحوال الاجتماعية في المجتمع عامة، وفي الأسرة خاصة إلى عجز الأسر عن رعاية أطفالها، وتنشئتهم التنشئة الاجتماعية السليمة.

فلقد كان للتغيرات الأساسية في كل من الاقتصاد والحياة الأسرية تأثير عميق في التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة، حيث أدت التغيرات في الحياة الأسرية إلى حاجة الطفل للرعاية خارج منزله، وهذه التغيرات تشمل مجموعة من العوامل المتشابكة، من أبرزها خروج المرأة للعمل، فخروج المرأة على النحو المنتظم المتكرر، وغيابها يوميًا لساعات ليست بالقصيرة عن أطفالها الذين ما زالوا في سنوات الحضانة، ترتب عليه ظهور مؤسسات

دور الحضانة وانتشارها تدريجيًا؛ لكي تعاون الأسرة والأم العاملة في تربية أطفالها ورعايتهم، لما يتوافر لها من الإمكانات التي تجعلها أقدر على حمايتهم والاعتناء بهم.

ولذلك أصبحت دور الحضانة ضرورة من ضرورات الحياة في المجتمع المعاصر، ولا يمكن الاستغناء عنها، وتأتي أهميتها من كونها امتدادًا لدور الأسرة، بالإضافة إلى أهميتها كمرحلة تربوية لا غنى عنها للطفل ذاته، حيث أثبتت الدراسات أن الأطفال الذين التحقوا ببرامج التعليم المبكر أكثر انخراطًا في الدراسة، وأن التحاق الطفل بدور الحضانة يحسن مهاراته الاجتماعية، ومهارات اللغة والتواصل والتعبير عن الذات، كما تسهم دور الحضانة في تنمية عضلاته الكبيرة والصغيرة، وتناسقها وتوازنها.

ولكي تحقق دور الحضانة أهدافها وتؤتي ثمارها لا بد من أن يتوافر فيها مجموعة من الشروط، من حيث المباني والتجهيزات وأدوات النشاط، والمشرفات الأكفاء القادرات على رعاية الأطفال وتربيتهم.

فمن الضروري أن يكون مبنى دور الحضانة مناسبًا للمرحلة العمرية، ويراعي حاجات نموهم، بالإضافة إلى توفر شروط الأمن والسلامة للأطفال.

ولا بد أن تكون الحضانة مزودة بالوسائل والأدوات اللازمة للأطفال، وأن تكون بيئة صحية ومريحة لهم.

وأيضًا لا بد من توافر المشرفات والمربيات المؤهلات تربويًا والحاصلات على الدورات التدريبية اللازمة لهن للتعامل مع هؤلاء الأطفال.

إن التحاق الطفل بدار الحضانة يؤثر تأثيرًا كبيرًا في تكوينه العقلي والاجتماعي والانفعالي والحركي، بل يمكن القول إن التحاق الطفل بالحضانة يُشكل ويُكوِّن هذه الجوانب وينميها، ويجعله شخصًا له أفعاله وخبراته، وممارساته ونشاطاته التي من خلالها يمكن أن يتم التعرف على نقاط القوة والضعف التي يتميز بها، والتعرف على مدى استقلاليته ومشاركته الاجتماعية.

وعلى الرغم من هذا الاهتمام المتزايد بمرحلة ما قبل المدرسة، إلا أن مؤسسات هذه المرحلة وإمكاناتها المادية والبشرية وتمويلها وطرق التربية فيها لا تزال دون المستوى المطلوب والمتبع في المجتمعات المتقدمة.

وعلى الرغم من الزيادة الكبيرة في مؤسسات دور الحضانة إلا أن هذه المؤسسات لا تستوعب إلا أعدادًا قليلة من الأطفال، ولا تستطيع أن تؤدي وظيفتها التربوية، ولا أن توفر العناية المناسبة للطفل، وأنه برغم الممارسات الجادة السليمة في بعض دور الحضانة إلا أنها تفتقد التكامل الذي يتطلبه النمو السليم للأطفال: عقليًا، وجسميًا، وانفعاليًا.

وهناك العديد من المشكلات التي تعاني منها دور الحضانة في مصر، منها مشكلات متعلقة بقواعد القيد والقبول، والفلسفة والأهداف، وخطط وبرامج الحضانة، والمباني، والتمويل، والإدارة، والإمكانات المادية والبشرية، وغيرها من المشكلات التي تؤثر على نظام الحضانة في مصر.

وبرغم أهمية تلك المرحلة، فإنها لم تلق الاهتمام الكافي حتى الآن من قبل القائمين على السياسة التربوية في مصر، كما أنها ما زالت تعاني كثيرًا من المشكلات التي تعوقها عن استيعاب معظم الأطفال المحتاجين إليها؛ وبالتالي تعوقها عن تحقيق أهدافها.

ومن أهم تلك المشكلات:

- مباني بعض دور الحضانة غير مناسبة، كما أنها غير مستوفاة للشروط التي يجب أن تتوفر فيها، ولا توجد مساحات خضراء واسعة للعب الأطفال وانطلاقهم، ولا حديقة للطفل، ولا بيئة تربوية مناسبة لهؤلاء الأطفال؛ مما يؤثر بالسلب على نموهم، وعلى تحقيق أهداف دور الحضانة.
- هناك نقص واضح في تجهيزات دور الحضانة من حيث الأثاث، وأدوات اللعب والنشاط اللازمة لهؤلاء الأطفال.
- مستوى النظافة المتدني، حيث لوحظ أن بعض المربيات يتركن الببرونات الخاصة بالأطفال الرُّضَّع مكشوفة للذباب والحشرات، مما يسبب إصابة الأطفال بالأمراض المختلفة من نزلات معوية وغيرها، بالإضافة إلى عدم تطهير المكان بالشكل المناسب.
- في حجرة نوم الأطفال المسافات البينية قليلة بين أسِرَّة الأطفال؛ مما يؤدي إلى سرعة العدوى بينهم، إذا كان هناك طفل مريض.

- معظم المربيات والمشرفات بهذه الدور غير مؤهلات تربويًا لهذه الوظيفة الخطيرة، ومعظمهن حاصلات على دبلومات فنية متوسطة، بالإضافة إلى نقص خبرتهن، وجهلهن الواضح في التعامل مع أطفال الحضانة.
- عدم وجود طبيبة مختصة في دور الحضانة لعلاج الطفل إذا حدث له مرض مفاجئ أثناء تغيُّب الأم عنه للعمل.

كما أن دور الحضانة تعاني من مشكلات كثيرة وصعوبات جمة أخرى، منها على سبيل المثال: العجز في عدد المشرفات، وانخفاض رواتبهن، علاوة على عدم تأهيلهن التأهيل الكافي، وعدم تلقيهن تدريبًا كافيًا، فضلاً عن ذلك ارتفاع كثافة الفصل، وضعف وقلة موارد التمويل، وتدني مستويات الرعاية التربوية والصحية والاجتماعية بها، أضف إلى ذلك أن هذه الدور تعاني من جمود اللوائح والقوانين، والروتين في أعمال الإدارة، وعدم صلاحية بعض مبانيها هندسيًا وصحيًا، وانخفاض فرص الترفيه التي تقدمها، وضغوط ذوي السلطان والنفوذ لقبول أطفالهم؛ مما يسبب تكدسًا، مع العلم بأن هذه المشكلات والصعوبات التي تواجهها دور الحضانة في القرى والمراكز أشد حدة من نظيراتها في المحافظات والمدن الكبرى.

وفي ضوء ما سبق يتضح وجود كثير من أوجه القصور في دور الحضانة، وهنا تبرز الحاجة إلى تحديد الإمكانات الواجب توافرها في هذه الدور، وهذا يتطلب نظرة جديدة وشاملة لرعاية وتربية الطفل، مما يدعو إلى ضرورة الاهتمام بهذه الدور وتطويرها، وإعادة النظر في طرق وأساليب تربية طفل ما قبل المدرسة.